اعتر افات أولى

"أينما وُجد الاعتراف وُجد الحب"

قررنا، اليوم، أنا وفاطمة أن نتخذ ساعة للاعتراف بعد كل وجبة عشاء. يتحدث فيها كل واحد منا عن علاقاته السالفة بالجنس الآخر. شرعت في الحكي، وبدأت بقصتي مع وصال. ابنة الخليفة في "الفيلاج". كانت بنته الوحيدة. ماتت أمها منذ ولادتها، ولم تتمتع بالنظر إلى وجهها، ولا بامتصاص ثديها. فتحت عينيها على أبيها الخليفة بشاربه الطويل الكثيف، الذي يخيف به الناس كلما أطل بوجهه من نافذة سيارته الفارهة. بنته جميلة لدرجة أن القوام كله ربما اجتمع فيها.

وصال، الآن، في السابعة عشر من عمرها، ولكونها ترعرعت واشتد عودها، وبرز صدرها وردفها وطال شعرها..في مدينة البيضاء، وفي حي المعارف الراقي، فإن فيها شيئا يشي بالأنفة والتكبر. تميل ميلا لطيفا فيه شيء من التغنج، تمزج الدارجة المغربية بفرنسية ركيكة. تدع شعرها منسدلا على كتفيها كشلال. كانت مراهقة قابلة للانفجار في أية لحظة. وبما أن أباها يشتغل خليفة، فإنها لم تستقر في الدار البيضاء. تنتقل من مكان إلى آخر. لذلك لم تتح لها فرصة التعرف على شبان كثر هناك. حي المعارف الراقي قريب لدرب غلف البسيط الذي يأوي الفقراء.كان يعرف حركة فريدة؛ النساء والرجال والأطفال يبيعون أي شيء. النساء يتشاجرن ويتناطحن في ما بينهن

كثيران هائجة. سكارى الحي يجرحون أيديهم بالسكاكين وشفرات الحلاقة. الحياة هناك صعبة، والبقاء فيها للأقوى.

كانت وصال تتردد بكثرة على درب غلف. وهناك عرفتها حين جاءتني تشتري منديلا بعد أن فتحت باب سيارة أبيها الفارهة، واندفعت منها كعارضة مكتملة الأنوثة. وبعدما انتهت العطلة الصيفية، وعدت إلى دوارنا لنعود إلى حجرت الدراسة، التقيت بها في "الفيلاج" بمعية أبيها.

كنت مراهقا قرويا. وكنت كما كل تلاميذ الدوار أدرس مرحلة الإعدادي والثانوي في "الفيلاج".كان علي أن أقطع المسافة على متن دراجتي الهوائية صباح مساء، شتاء وصيفا. شبان القرية يعانون في صمت، وفي غير صمت. كان فقرنا باديا على ملابسنا. لا نصل إلى المؤسسة حتى ينتقم منا الغبار المتناثر هنا وهناك. فما إن تمر سيارة أو شاحنة محملة بالرمال، حتى يتطاير الغبار ليملأ المكان. أما نحن فلا حول لنا ولا قوة. لا نجد مخرجا ولا سدا منيعا. نصبر ونصبر حتى نبلغ المؤسسة ونتجه تلقاء الصنبور. كان طعامنا في أغلب الأحيان تمرا. نقطع المسافة ذهابا ونحن فرحون. نعود ونحن فرحون. كنا نبدو في أعين مراهقي "الفيلاج" كمخلوقات آتية من كوكب آخر؛ كوكب لم يعرف تطورا ولا تمدنا.

سألتني فاطمة:

- "وكيف كان اللقاء الثاني و أين؟".
- "كان بين أسوار الثانوية سنة ألفين وثمانية، حيث ذكرتها أنني من باع لها المنديل في البيضاء.. وحينها أخبرتني أنها ابنة الخليفة، وأنها ستتابع

دراستها معنا؛ لأنهم انتقلوا إلى "الفيلاج" بسبب وظيفة أبيها الذي كلف بمهام في الجنوب".

- "كان حبا بساق واحدة. فقد كانت كشجرة البامبو لا قرار لها. أينما حملها إليه والدها ووضع ساقها تتثبت بالأرض، وأحبت شخصا آخر، ونسيت جذورها الأولى".
- "كان حبا معتما إذن".
- "بل كان حبا شفافا؛ لا غبار عليه. لكنه كان بساق واحدة".
- "وهل يوجد حب بساق واحدة؟!".
- "إنه الحب الذي يكون من جهة واحدة".

أطفأت فاطمة ضوء الغرفة وقالت: "نتمم اعترافاتنا غدا. لندع الكلام للعتمة الآن.